أفكار غيّرت العالم

٤

بى نظير بوتو

حاملة راية الحرية

رئيسة وزراء باكستان السابقة وأول من تولى هذا المنصب فى العالم الإسلامى

بقلم :

د. منال القاضى

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

القاضى ، منال .
بنى نظير بوتو.. حاملة راية الحرية : رئيسة وزراء باكستان السابقة وأول من تولى هذا المنصب فى العالم الإسلامى .
بقلم : منال القاضى .
- القاهرة : دار المعارف ، (٢٠٠٨) .
٢٨ ص ؛ ٢٠ سم . (أفكار غيرت العالم ؛ ٤) .
تدمك : ٤ ـ ٧٢٥٨ ـ ٠٢ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨ .
١- بوتو ، بنى نظير ١٩٥٣ ـ ٢٠٠٨ .
٢- السياسيون الباكستانيون .
أ) العنوان . ب) السلسلة .

ديوى ٩٢٣,٢

رقم الإيداع ٢٤٠٢٠ / ٢٠٠٨ ٧/ ٢٠٠٨ /٥٢

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧– فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مَنْ هى بى نظير بوتو:

□ هى ابنةُ الزَّعيم «ذو الفَقَار على بوتو» مؤسسُ حزبَ الشعبِ الباكستانى، وأولُ رئيس مُنتخب من قِبَل الشعب.

□ وُلـدَت عام ١٩٥٣ وتُوُفيت عام ٢٠٠٧ فى حَادثِ اغتيالٍ فِى مَدينة روالبندى.

□ تولَّت رئاسةَ حزب الشَّعب وقادتهُ إلى الفوزِ مرتيْن.

□ تولَّت رئاسـةَ الوزراءِ فى باكسـتان من عـام ١٩٨٨- ١٩٩٠ و١٩٩٣- ١٩٩٦.

مِنْ أقوالها:

«منَ المهمِّ جداً لرئيسٍ دِيمقراطى أَنْ يستجيبَ للنقدِ ولاَ يُهمله، وكلنَا نتعلَّم منْ أخطائنَا، فالحياةُ بالنسبةِ لنَا عملية تعلُّمٍ مستمر».

«لَا أرى تعارضًـا بين أَنْ تكونَ لدَىَّ عَائلـة وبينَ أنْ يكونَ لدىّ دور عام».

«بينكى... بينكى»

انتبهَت الصَّبيةُ «بى نظير»، رفعتْ رأسهَا عنِ الكتَاب الذِى كَانت تتصفَّحهُ، والتمعَتْ عيناهَا فِى فرَحٍ شَديدٍ. إنهُ صوتُ أبيهَا الحَبيب، كانتْ تعرفُ كَمْ هوَ مشغُول وَلذلكَ فوجُودهُ الآنَ فى البيتِ هوَ لحظةٌ نادرَة، يجبُ عليهَا اقتناصهَا، كانتْ فِى حَاجة إلى أنْ يضمهَا بينَ ذرَاعيْه، وَأنْ يشعرهَا أنهُ قادرٌ عَلى حمَايتهَا... مَاذَا؟ هلْ كانتْ تشعرُ بالخَطر؟ هلْ كانتْ خَائفَة؟

اعترفَتْ بينهَا وبينَ نفسهَا، نَعَمْ كانتْ خَائفة ممَّا قرأتهُ فِى الكتابِ، وَتودُّ مناقشتهُ معَ عقْلٍ كعقْلِ أبيهَا.

صرختْ كأنمَا تستنجدُ بِهِ:

«أبِى... أبِى... أنَا هنَا فِى غُرفتى».

لحظَات وكانَ الأبُ إلى جوارهَا، احتضنهَا فِى حنانٍ وَقالَ:

«بينكى الجَميلة».

أمسكَ بالكتَاب الذِى كانَ لا يزالُ بينَ يديْهَا وسألهَا:

«وَالآنَ مَاذا تقرأُ ابنتِى الحلْوة؟».

أجابتهُ عَلى الفوْر:

«إنهُ كتابٌ يتناولُ حياةَ جانْ دَارك».

أطلقَ الأبُ صَفيرًا عاليًا وخاطبَ ابنتهُ فِى إعجَاب:

«جَانْ دَارك، إنهَا شخصيَّةٌ مُؤثرةٌ فِى تاريخِ فرنسَا».

أومَأت «بى نظير»:

«نعَمْ نَعَمْ، رغمَ أنهَا لمْ تكنْ سِوَى فلَّاحة فرنسيّة بسيطَة».

وافقهَا الأبُ:

«ومعَ ذلكَ قَادت بلادَهَا إلى النصْرِ، وسَاهمتْ فِى تحريرهَا مِنَ الإنجليز».

أطرقـتْ «بى نظِير» فِى أَسـىً، وامتدَّ الصمـتُ بهَا. ولكنَّ الأَب اخترقهُ وسألهَا:

«مَاذا... ألَا تعجبكِ قصَّتهَا؟»

هزَّت «بى نظير» رأسَهَا بشدَّة:

«أبدًا... أبدًا، لقدْ كانتْ مَناضلَة، وصَادقة فِى حبهَا لبلادهَا، لهذَا تبعهَا كثيرُونَ».

رفعتْ رأسهَا ونظرتْ مباشرةً إلىَ عَيْنى أبيهَا كأنهَا تلتمسُ فيهمَا الأمَان وَقالتْ:

«ولكنْ مَا يزعجُنى حقًّا يَا أَبِى، أنَّ جَانْ دَارْك، تلكَ الفتَاة الصَّادقة، كانَ لهَا أعْدَاء، تآمرُوا عليهَا، وقامُوا بتسليمهَا إلى الإنجليز».

رفعتْ «بى نظِير» حَاجبيْهَا كأنمَا هىَ مندهشَة منْ مَصيرِ بطلتهَا المحْبوبَة إنهَا لمْ تُخطئ، وَفعلَت الكثيرَ منْ أجْلِ بلادهَا، فَلِمَ تكونُ نهايتهَا حَزينَة؟ إنهَا لا تستحقُّ ذلكَ!!!».

كانَ الأبُ «عَلى بُوتُو» يعرفُ قصّة «جانْ دَارْك» وَنهايتهَا المؤْسفَة، فقدْ اتُّهمَت ظلمًا منْ قِبَلِ الإنجليز بالسِّحر وَالإلحَاد، وَأُحْرقَتْ حيَّة فوقَ قطعَةٍ منَ الخشَب، وبذلكَ انتهتْ حياتُهَا دونَ أنْ تتجاوزَ التاسعةَ عشرةَ منْ عمرهَا.

احتضَنَ «عَلى بُوتُو» ابنتهُ وقَالَ:

«لا تحزَنِى».

أمسكَ الكتابَ وقلّب فِى صَفحَاته، ثُم توقَّفَ عندَ إحْدى الصَّفحاتِ وَأشارَ إلى بعْضِ الجُمَل:

«انظرِى... لقدْ أُعيدت مُحَاكمتهَا بعدَ وفاتهَا بسنوَات، وَبُرِّئَتْ منْ كلِّ التُّهَم التِى أُلْصِقَت بهَا، وَرُدَّ إليهَا اعْتبَارهَا، وصَارت بطلةً قوميَّةً لفرنسَا».

جَادلت «بِى نَظير»:

«ولكنَّ هذَا لا يُنفى أنهَا عَاشت لحظَات صَعْبة وحزِينَة، لَمْ تقتلْهَا المحْرقةُ فقطْ، وَلكنْ قتلهَا الظُّلمُ أيضًا».

وَاساهَا الأبُ:

«إنــهُ قدرُ العُظمَاء، أحيانًا يتعرَّضُون للظُّلمِ وَالتجَاهُل والجحُود، ولكنَّ التاريخَ يُنصفُهم، وَلوْ بعدَ حينٍ».

سَرَت فِى جسَد «بى نظِير» رجْفةٌ، فقدْ كانَ أبوهَا منَ العُظمَاء، بلْ هوَ أعْظمُهم فِى نظرهَا، فهلْ يتعرَّضُ لمَا تعرَّضتْ لهُ جَانْ دَارْك؟!.

حَاولــتْ طرْد هذَا الخَاطر منْ رأســهَا، وأمسَــكت كفــهُ بقوةٍ، وَتمنَّــتْ: «ليتَ الزمَنَ يتوقَّفُ، كىْ تحتفظَ بالأمانِ الذِى تشــعرُ بهِ الآنَ إلى الأبدِ».

أَعَاد إليهَا أبوهَا الكتابَ وَقالَ:

«لقدْ عاشَت «جَان دَارك» سَــنوَات قليلةٍ، ولكنهَا أَنْجزَت أشيَاءَ كَبيــرة، ليكُــنْ هــذَا درسٌ لكِ يَا بينكــى، فعمْرُ الإنسَــان لا يقاسُ بالســنوَات التِى يحياهَا وَلكنْ بالأعمَال الطَّيبةِ التِى ينجزُهَا وَتؤثرُ فِى حيَاةِ النَّاس».

قَبَّلهَا فِى جَبِينهَا وَاسْتمرَّ يقولُ:

«لا تحزنِى عَلى «جَان دارك»؛ لأنهَا مَاتتْ صَغِيرة، وَلكنْ شفقتك يجبُ أنْ تكونَ عَلى الذينَ عَاشُــوا طويلًا ومَاتُوا دونَ أنْ يتركُوا أثرًا فِى حيَاةِ الآخرِينَ».

نظرَت «بى نظِير» إلى أبيهَا وهزّت رأســهَا، كانتْ لا تزالُ خَائفة عليْهِ منْ قَدَرِ العظمَاء تَمْتَمَت:

«فَلْيحفظْكَ الله يَا أَبى».

مرَّتِ السنوَاتُ وكبرَتْ «بى نظير بُوتُو»، وصَارت فتاةً ذكيَّةً، نَهِمَةً إلــىَ المعْرفَة، وهذَا مَا جعَل أبوهَا يُشــجعُهَا عَلى موَاصلة تعليمهَا بالخَــارِج، كانَ دائمًــا مَا يحلــمُ لهَا بالمَزيد، وكثيــرًا مَا كانَ يهمسُ بأحلَامِــه وَتوقعاتهِ اللَّامحدُودة لهَا، لأمهَا «نصــرت»، تلكَ الإيرانيةُ الحلوةُ التِى خَطَفت قلبَهُ منذُ الوَهْلةِ الأُولىَ، فتزوَّجهَا.

قالَ لهَا ذاتَ مسَاء:

«سَــأخبرك بســرٍّ يَا زوْجتِى العَزِيزة، منذُ اللَّحظــةِ الأُولى التِى حَمَلْتِ فيهَا بابنتنَا، وهىَ ماتزالُ طفلةً رضيعَةً، داهمَنى شعورٌ خفىٌّ أنهَا ستكونُ فتاةً فَرِيدَة، ولهذَا أَسْميتهَا «بى نَظير»، أىِ التِى لَا نظيرَ لهَا، هلِ استعَدّت للسفرِ إلى هارفارد».

اقتربتْ «نصرت» منْ زوجهَا، رَبتتْ عَلى كتفيْهِ لعلَّها تخفِّفُ عنهُ الأعبَاءَ الكثيرَةَ التى أُلقيَتْ عَلى كاهلهِ منذُ أنْ قامَ بتأسيس حزْب الشعْبِ، كانتْ فخورَة بهِ، فكلُّ يومٍ يمرُّ تزدادُ شعبيتُهُ بينَ البَاكستَانيينَ.

قالتْ لهُ:

«لا تشغلْ بالكَ، باقِى أيامٍ عَلى موْعد السَّفر».

تنهَّدَ عَلى بوتو:

«أعْـرِفُ... أعرفُ.. ولكنِّى قلقٌ، إنَّ «بى نظِير» مُخْتلفة، آه لَوْ لَمْ تكنْ فَتَاة.....».

سكتَ «عَلى بوتُو» كأنمَا توقَّفتِ الكلمَاتُ فجأةً عَلى شَفتيْه.

ضَحكت زوجتهُ «نصرت» عاليًا وَقالتْ:

«فَتَاة؟ مَاذا تعْنى بقولكَ فَتَاة؟... أنتَ لمْ تُفرِّقِ أبدًا فِى المعَاملةِ بيـنَ «بى نظير» وَأشـقائهَا، دائمًا مَا كنتَ تمنحهَـا الثقةَ بالنفْس، وَتُساندهَا فِى آرائهَا وأفكارهَا، وهىَ الآنَ عَلى وشكِ السفرِ لمتابعَة دراستهَا بِالخَارِج، فكوْنهَا فَتَاة، لمْ يكنْ عَقبة أمَامَ طموحهَا».

رفعَ عَلى بُوتُو سبّابتهُ، وقالَ فِى دبلُومَاسيَّةٍ:

«أنَا لَا أقصدُ شـيئًا، ولكنْ هناكَ هَاجسٌ يَعْترِينى يَا «نصرت» كلّمَا نظرتُ فِى عينيهَا وَاستمعْتُ إلى آرائهَا، عرفْتُ أنهَا تملكُ ذكاءً وَمَنْطقًا

وَحسْمًا وحيويَّةً لا يملكهَا كثيرٌ منَ الرجَال، لوْ كانَ الأمرُ بيدِى لاخترتُهَا لتكـونَ وريثتِى فِى المكَانة، فهىَ الأجدرُ منْ بينِ أبنَائى، ولكنْ هناكَ كثيرونَ لنْ يعترفوُا بمواهبِهَا، وسوفَ يروْنَ فيهَا، مجرّدَ امرَأةٍ».

اسْتفسرَتْ منهُ «نصرت» فِى دهشةٍ:

«هـلْ تعْنى هـذَا حقًّا، هـلْ تريدُ «بِـى نَظِيـر» أَنْ تعملَ فِى السياسَة؟!».

انقبضَت ملامحُهَا وقالتْ فِى عصبيَّةٍ:

«لَا.. لَا... لَا تفكرْ فِى هذَا يَا عَلى، «بى نَظير» لا تحبُّ السياسةَ، إنهَا ذَاهبة إلى «هَارفارد» لدراسَة علْم النفْس، كثيرًا مَا تحدَّثت مَعى عَنْ دِفْءِ الأُسـرَة، وَرَغبتهَا فِى أنْ تعيشَ حياةً بعيدةً عنِ الصَّخَب، دائمًا مَا كانتْ تقولُ لِى، السيَاسة تأخذُ منَّا أبِى طوَال الوقتِ».

ابتسمَ «عَلى بوتو» وَقالَ:

«أَعرفُ أعرفُ كلَّ مَا تَقُولينـهُ، ولكنْ مَنْ قالَ إننَا نختارُ أقدارَنَا، عَلىَ «بى نظير» أنْ تكتشفَ قَدَرَهَا وَتَتبعَهُ».

حَلّقـت بهَا الطائرةُ المتجهةُ إلى أمريكَا، نظرتْ «بى نظير» منَ النافذةِ، كانتْ أنوارُ «كراتشـى» تبتعِد. شعرَت بالوحْشةِ، تَدَافعت

الذكريَاتُ داخلَ رأسـهَا، حَارّة وَمُؤثرةً، ازدَاد حنينُهَا إلى لمسَـةٍ منْ كفٍّ أبيهَا، وَابتسَـامةٍ مُشجِّعة مِـنْ أُمهَا، وَضِحْكـة بريئَة منْ بيْنِ شفَتى شَـقيقتهَا الصُّغرى «سانام»، وَمنَاوشَـات أخويْهَا «مرتَضى» و«شَاه نواز» البريئَة.

وَافتقدَت أيضًا شمسَ باكستان، وبيوتَهَا وشوارعَهَا وَناسَهَا.

منـذُ أنْ ركبـتِ الطائرةَ وَحِيـدَة وَهىَ تشـعرُ بطعْم الغربَة المُرِّ.

انسَـابتْ دموعُهَا سَـاخنة، ولكنْ لا مجَال للعـودَة، ليسَ أمامهَا سـوَى أَنْ تتقدَّمَ وتتقـدَّمَ، لا تريدُ أَنْ تخذلَ أباهَـا الحَبيب، كانتْ تعـرفُ كمْ يؤمنُ بهَا، وَبقدرتهَا اللَّامحْـدُودة عَلى التحدِّى، لابدَّ أَنْ تثبتَ لهُ أنهَا مَحَل ثقتهِ الغَالية.

بدأتْ دراسـتهَا فِى جَامعـة هَارْفارد، وَاسْـتطَاعت «بى نظير» الاندمَاجَ فِى الأنشَـطة المُخْتلفة، وَتكْويـن العَديد منَ الصَّداقات، وَلكنَّ بلادَهَا وَهويتهَا الإِسلَاميّة ظَلَّت نصْب عينيهَا طوَال الوقْت.

كانـتْ نبرَاتُ أبيهَا عبْر الهاتفِ تحمـلُ لهَا رَائحةَ الوطَن، فتبْكِى رغمًا عنهَا.

يَستمعُ الأبُ «ذوُ الفقارِ عَلى بُوتُو» لزَفراتهَا الحارّة ويحاولُ تهْوينَ الغربَةِ عليهَا فيقُول:

«ستعُودِينَ إلى باكستان فتاةً مُكتملَة النضْجِ، حَاصِلة عَلى أَعْلى الدرجَات العلميَّة، ستكُونينَ مَنَارةً لوطَنك».

يمتدُّ الصمتُ عبْرَ الهاتفِ، يحاولُ «على بوتو» اخْتراقهُ:

«وَلكن أَخبرينى، كيفَ قرَّرتِ دراسَةَ السياسَةِ بدلاً منْ علْم النفْس؟!» يسمعُ ضحْكة عذبَة عَبْر الهاتفِ، بعدهَا تقولُ «بى نظير»:

«لا أدرِى... ربمَا الجينَات».

يعلِّقُ «عَلى بوتو» فِى مَرَح:

«نَعَم... نَعَم... هىَ الجيناتُ يَا بينكى».

عدَا مِثل هذِه اللحَظات الجيَّاشة، كانتْ «بى نَظير بوتُو» تبذلُ جهدًا، منْ أجْل استيعَاب الثقافَة الأمريكيَّة، كانَ كلُّ يوم يحملُ إليهَا الجَديدَ.

وذاتَ يومٍ وصلتهَا أنباءٌ سارَّة منْ بلادهَا، لقدْ فازَ أبوهَا فِى أوَّلِ انتخَابَات حُرةٍ فى باكستان، ليتولىَّ مقاليدَ الحكْم بأصوَاتِ الشعْب وَمبَاركته.

شعَرت «بى نظير» بالفخْر أمامَ زُملائهَا فِى جَامعة هارْفارد، فقدْ كانَ فوْزُ أَبيهَا فِى اقترَاع ديمُوقرَاطى، هوَ دَليلٌ عَلى أنهَا قَادمَة منْ بلدٍ حُرٍّ، لا يقلُّ تحضُّرًا عنْ أمريكَا.

كانتْ فِى البدايةِ مُنبهرَة بالحضَارة الأمْريكيَّة، ولكنهَا معَ الوقتِ تَعلَّمتْ أنْ تكونَ موْضُوعية، فأمريكَا ليسَــت أَرْض الميعَاد وَلَا جَنَّة الله عَلى الأرْض، وحكامهَا ليسُوا منزَّهينَ عَنِ الأخطَاء.

كانَ الغضبُ يضــرمُ فِى ذلكَ الوقتِ بينَ طلَّاب جامعَة هارفارد، بسببِ الحرْب الأمْريكية الدائرَةِ فى فيتْنَام.

إنَّ كثيرًا منْ زُملائهَا الأمريكيينَ شعرُوا بالخِزْى منْ مُحاربَة شعْبٍ أضْعــفِ دونَ مُبرر. وَنظمُوا المظَاهرَات التــى تنددُ بحرْبِ فيتنام، وَبالطَّبع انضمَّت إليْهم «بى نظِير»، وَهتفتْ معَهم:

«أَوْقفُوا الحَربَ وَكفَى دِمَاء».

لتبدأَ ملامحُ شَخْصيتهَا فِى التبلْوُرِ، ستكُونُ منَاضلَةً ضدَّ الظُّلْمِ.... كُلَّ الظُّلم.

قضتْ «بى نظِير بوتُو» أربعَ ســنوَاتِ فِى جَامعة هَارْفارد، كانتْ سنوَات مَليئَةً بالحيويّة وَالأفكَار الخلّاقة وَالمناقشَات المثْمِرة وَأيضًا القراءَات الهامَّة وَالمُؤَثرَة، وبعدهَا عَادت إلى أرْض الوطَن.

استقبلتهَا عائلتُهَا بحَفاوةٍ، واسْترجعَت «بينكى» كلَّ مَا افتقدتهُ منْ دِفْءِ الأُسْرة.

وَلكنَّ هذَا لمْ يكُن نهَاية المطَاف بالنسبَة إليهَا، كانَ عقلُها مازَالَ متعطِّشًا إلىَ المعْرفَة.

اقتربَ منهَا أَبُوهَا ذاتَ ليلةٍ وَسَألهَا:

«ماذَا قَرَّرت؟».

نظرَت إليهِ مُستفهمَة، فردَّ عليهَا بابتسامَةٍ:

«مَا رَأيكِ فِى إكْسفُورد؟».

لـمْ تُصدق «بى نظير» نفسهَا، نَظَرت إلى أَبيهَا فِى حُبٍّ، إنهُ يستطيعُ أنْ يقرأَ أفكارَهَا فِى بسَاطة وَيُسْر، وَيُدْركَ رغبتهَا فِى استكمَال دراستهَا العُليا.

كانتْ عَلى وشكِ أنْ تفاتحَه فى الأمْر، وَلكنْ لا تدْرى كيفَ؟ خاصَّة وأَنَّ أمهَا قَدْ بدأتْ بالفعْل استعْرَاضَ- أمامهَا- عددٍ منْ أبناءِ العائلَات الباكسْتانيَّة الكبيرَة الذينَ يصلُحونَ أزواجًا مثاليِّينَ.

اقتربَتْ منْ أبيهَا وَطَبعت قبلةً كبيرةً عَلى وِجْنتيه:

«كيفَ قرأتَ أفكارِى يَا أَبى، إنَّ هذَا سرٌّ منْ أسرَار عَظَمتك».

احتضنهَا «ذُو الفقارِ عَلِى بوتُو» وهمسَ فِى أذنيْهَا كأنهُ يُطلعهَا عَلى أمرٍ خَطِير..

«الدراسَة فِى «إكسفُورد» هىَ الَّتى علَّمتنى كلَّ شىءٍ، أُريدكِ أَنْ تحْظى بكلِّ الفرصِ الذِى حظِيتُ بهَا».

داعَبَته قائلةً:

«لماذَا هلْ تتوقعُ لِى أَنْ أكونَ يومًا رئيسَة وزرَاء».

أجابهَا فِى بسَاطة:

«وَلِمَ لَا».

ضَحكَت «بى نَظير»، كانتْ تحبُّ أباهَا بجنُون، وتُريد أنْ تكونَ موْضعَ فخْره، ولمْ يكنْ يدورُ فِى خلدهَا فِى تلكَ اللحَظات أنهَا خُلقت لتكونَ سيَاسيّةً مُحَنَّكَةً، وَأولُ مُسلمَةٍ تتولىَّ منْصبَ رئيسَ الوزرَاء فِى بلادهَا، بَلْ فِى العَالم الإسْلَامى، وَأنهَا ستكونُ أصغرَ رئيسَة وزرَاء فِى العَالم؛ لأنهَا ببسَاطةٍ لا تحبُّ العمَل بالسياسَة، وَترَى السيَاسة غُولًا يفترسُ الحياةَ الشخصيَّة، وَيحرمُ أسرةَ السيَاسى من الاستقْرَار.

ولكنهَا قالتْ لأبيهَا:

«ليكنْ سأذهبُ إلى «إكْسفُورد» مادمتَ تُريدُ ذلكَ».

كانتِ الحياةُ فِى «إكسفُورد» عملًا جادًّا ومسْتمرًّا، بعيدًا عنْ أَىِّ رفاهيَةٍ تعوّدت عليهَا «بى نظير».

كانــتْ تعيشُ فِى غُرفة صَغيرة، ليسَ بهَا حمَّام خَاصّ، ومعَ ذلكَ بدأَتْ «بى نظِير» تكتشــفُ منــذُ الوهْلة الأُولى لمَــاذا كانَ أبوهَا مفتونًا بأكسفُورد.

هناكَ بدأَت مواهبهَا فِى التفتُّح، اكتشفَت دَاخلهَا جُرأةً لمْ تعهدْهَا ورُوحَ مُبَادرة عَالية. وهذَا جعلهَا تقررُ خوْض انتخَابات اتحَاد الطَّلبة فِى إكسفُورد، وَالتنَافس عَلى منْصب رَئيس اتحَاد الطَّلبة.

كانتْ تشــعرُ أَنَّ هذَا ســوفَ يُســعدُ أَباهَا، فهىَ تشعرُ بوجُوده معهَا فِى كلِّ لحظَة، وَتُراجعُ نفسهَا قبلَ أَيَّة خُطوَة وَتسألُ:

«هلْ سيحبُّ أبى هذَا أم الأَفْضل أنْ أتريَّثَ وَأفعلَ كذَا».

كانَ أبوهَا هوَ بطلُهَا وَقدوتُهَا، لمْ تنتظرْ، هَاتفتَهُ لتزفَّ إليهِ الخَبر.

«نَعَمْ... نَعَمْ يَا أبِى سوفَ أخُوضُ الانتخَابَات».

اسْتطَاعت أَنْ تخمِّن وقْع الخبرِ منْ صوته، كانَ فخورًا بهَا وسعيدًا بخوضهَا تجرِبَة فريدَة كهذهِ، لمْ تَمُر بهَا فتاةٌ آســيويّة مُسْــلمَة فِى تلكَ الجامعَة العرِيقة.

ورغْـمَ أَنَّ «ذُو الفقار عَلـى بوتو» كانَ واثقًا مـنْ قدرَات ابنتهِ ولكنهُ كانَ قلقًا عليهَا منَ الفشَل.

سألهَا بصوتٍ حَانٍ:

«وَإلى أىِّ مدَى مُرَشحتِى الجمِيلة مُسْتعِدَّة؟!».

أجابتهُ فِى ثقة:

«أنَا أعملُ كلَّ مَا أستطيعهُ يَا أَبِى وَأُحاولُ التخطيطَ جيدًا لحمْلَتى الانتخَابيّة».

قالَ لهَا فِى رقَّةٍ:

«بينكى، أتمنَّى لكِ كلَّ توفيقٍ وَأُريد أَنْ أُخبركِ بشىءٍ، إنَّ شجاعَتكِ فِى خوْض هذِه التجربَة يُسعدنى جدًّا مهمَا كانتِ النَّتَائج».

سـكتَ برهةً ثمَّ عادَ يقـولُ كأنمَا يُحاول تحْصيـنَ ابنتهِ منْ أىِّ إحباطٍ لَوْ كُتبت لهَا الهزيمَة.

«أكررُ لكِ يَا حبيبتِى لَا تهمُّ النتيجَة».

وَلكنهَا ردَّت فِى ثقةٍ:

«لَا تَقْلق يَا أَبِى، فسوفَ أفوزُ بإذنِ الله».

قادتْ «بى نظير» حَمْلتها الانتخابيَّة فِى براعَة، كَانت المنافسَـة

شرسَــة ولكنهَا شعرتْ أنهَا تتمتعُ بشــىءٍ مَا مُختلف، يجعلُهَا قَادرَة عَلى التأثيرِ فِى الآخرينَ وإقْنَاعِهم.

وَبعدَ مجْهود كبيرٍ اسْــتطَاعت «بى نظِير» اقتناصَ الفوْز، لتصِيرَ رَئيــس اتحَاد الطَّلبــة فِى جامعَة إكســفُورد، هذَا الاتحــادُ العريقُ الذِى أَنشــئَ عَام ١٨٢٣. لتصيرَ بذلكَ أوّل امرَأة آسيويَّة تتولىَّ هذَا المنصبَ، فتكْتشِــفَ قدراتهَا فِى هذَا الاختبارِ الصَّعْب، وَتُثبتَ أنها «بى نظِير»، التِى لَا نظيرَ لهَا.

هلْ هذَا كَابُوس؟ هلْ ســينْجَلى يومًا؟ هذَا مَا ســألتهُ «بى نظير بُوتُو» ذاتَ يوم. حينَ انقلبَت جنتُهَا فجْأة إلى أشوَاك، وتحوّلَت منَ ابنةِ الزعيم «ذُوٌ الفقار عَلى بُوتُو» إلى سَجينةٍ هىَ وَأمهَا وأبوهَا.

حَاولَت استشــرَاف المسْــتقبل دونَ جدْوى. كانَ كلُّ شىءٍ قَاتمًا مُغَلّفًــا بالسَّــوَاد. لقدْ أُطِيــح بوالدهَا فِى غمْضَة عيْــن، إثْرَ انقلَابٍ عسْكرِى قادَهُ الجنرَال «ضِيَاء الحَق».

هَــلْ حقًّــا فعلَ «ضياءُ الحقِّ» هــذَا؟ لقدْ كانَ مُقرَّبًــا منْ أَبيهَا، كانَ يصفهُ بقولهِ: خجولٌ ومخْلصٌ وليسَــت لديهِ أطمَاعٌ فِى الحُكم، لقــدِ اختارهُ أبوهَا بعنَايةٍ، وَبعدَ تفكِير طَوِيل. كيفَ وصلَ الأمرُ إلى مَا وصَل إليه الآنَ؟!

حَاولتْ «بى نظيرَ» التفْتيش دَاخل زنزَانتهَا عَنْ إجَابة، وَلمْ تجدْ تفسيرًا سوَى فقرَات تذكَّرتْهَا منْ مسرحيّة شَكسْبير يُولْيوس قيصَر، لقدْ تآمرَ عَلى «قَيْصر» أقربُ الأصْدقَاء، وَطعنهُ «برُوتَس» الوَفى معَ الآخرِينَ، تذكَّرتْ جملةَ شكسبير الشَّهيرة التى وضعهَا عَلى لسَان قيصر المذْهُول بمَا فعلهُ صَديقُه «حتَّى أنتَ يَا بُرُوتَسْ».

هلْ قَالَ أبوهَا مثْل هذِه الجمْلة لضيَاء الحَق؟، هَلْ صمتَ لأنهُ لمْ يجدْ الجملَ المناسبَة التى يصفُ بهَا مشَاعرَهُ؟ تُرى مَا هوَ شُعورُهُ الآنَ؟ ليتهَا تَعْرف.

لمْ يتلَقَّ الطعنةَ منْ أعدَائه ولَا معَارضيه، ولكنْ منَ الرجُل الذى أوْلاهُ الثقةَ.

«يَا إلهى».

دَفنت «بى نظيرُ» وجههَا بينَ كفيْهَا.

«كيفَ يُخطىء الحدْسُ إلى هذَا الحدِّ، وَكيفَ ينقلبُ الأَصدقاءُ إلىَ أعدَاء؟!. هَلْ هىَ شهوةُ السلْطَة؟!».

لمْ يَبْدُ عَلى «بى نظير» الاقتنَاع بتلكَ النتيجَة، فأبوهَا لمْ يغْتصب السلطةَ، لقدْ جاءَ به الشعبُ عبرَ انتخَاباتٍ ديمُوقْرَاطية، فبأىِّ حَقٍّ يغتصبُهَا «ضِيَاءُ الحقِّ» الآنَ؟!

شَعَرت «بى نظير» أَنَّ العالمَ يهتزُّ منْ حولهَا ويتداعَى، وَانتابتْهَا مشاعرُ غَامضَة، مَزيج منَ الخوْفِ وَالعجْز، فهىَ مُكبَّلة بأغْلالِ السِّجْن وليسَ فِى مقدورهَا أنْ تفعلَ شيئًا منْ أجْل أبيهَا.

كانتْ تسرحُ بخيالهَا كثيرًا وَتحاولُ تخطِّى وَاقعَهَا الأَليم، وَتتصوّرُ نفسهَا حرّة، وقد انتهَت الأزمةُ، وَأُطلقَ سراحُ أبيهَا وَلكنهَا سُرعَان مَا تُصْدم بجدرَان السجْن وَتعرفُ أنَّ أحلامهَا قدْ لَا تتحققُ فتصْرُخ:

«يَا رب، إنهُ يستحقُّ الحريَّة، لقدْ دافعَ عنهَا طوَالَ حيَاته وَمنحهَا لأبناءِ وَطَنه».

كانتِ النداءَاتُ الدوليةُ فِى ذلكَ الوقْت تنهَالُ عَلى «ضِيَاء الحق» منْ أجْلِ إطلَاق سَرَاح «ذو الفقار على بوتو»، أليسَ هذَا اعترَاف منَ العالم بشجَاعة وَالدهَا وصدْقه وَنَزَاهته وَشَرْعيته؟ ولكنْ هَل يَستجيبُ «ضياءُ الحقِّ»، هلْ يستمِعُ إلى ضمِيرهِ وَيَطلقُ سرَاحَ الرجُلِ الذى أكرمهُ يومًا؟!.

كانتِ التساؤُلات تتوالىَ دَاخل رأْس «بى نظِير» وَلكنْ دونَ إجَابة.

وذاتَ يوم أيقظهَا حُرَّاسٌ أَشِدَّاء منْ أصحَابِ العُيونِ الثلْجيَّة، وَوجُوه كأنهَا هَارِبَة منَ الجَحِيم، وأخبرهَا أحدُهم أنهَا سترَى أبَاها فِى اليومِ التَّالى. انتابتْهَا مشاعرٌ مُخيفة وَسَألت:

«لمَاذا؟».

ولكنَّ الوجوهَ ازدَادتْ صَلَابةً.

خَمّنت «بِى نَظِير» السَّـببَ، سَينفذُ حكْم الإعدَام عَلى أَبيهَا فِى الغَدِ.

حَاولت كسْبَ الوقْتِ:

«وَلكنىً مريضَة، هلْ يمكنُ تأجِيل هذِه الزيَارة بضعَة أيامٍ؟».

أجابهَا أحدُهم فِى برُودٍ:

«الأوامرُ لَا تسمحُ بذلكَ».

حَاوَلت «بِى نَظِير» أَنْ تكونَ مُبَاشرةً فسَألتْ:

«هلْ سيعدَمُ أبِى غدًا؟».

وجوهُ الحراسِ تنكمِشُ فِى غمُوض وَلَا إجَابة.

تملَّكَها دُوَار شديدٌ، وكرَّرت سُؤالهَا فِى هِيسْتيريَّةٍ.

وَلَمْ تَتلَقَّ رَدًّا.

ثلاثـونَ دقيقةً، هِـىَ كلُّ الوقتِ الذِى حَظِيتْ بـهِ «بى نظير»، ثلاثـونَ دقيقةً- فقطْ- منْ أجْـل وَدَاع أَغْلى النـاسِ. صَرَخت وهُمْ يأخذونهَا بعيدًا عنْ «ذو الفقار على بوتو» قائلينَ:

«لقد انتهىَ الوقتُ».

حَاولـت إفْهَامهُم، إنهُ اللِّقَاءُ الأخِيرُ بينهَا وبينَ أَبيهَا، وَأنَّ الوقتَ المقررَ ليسَ كافٍ قالتْ لهُم:

«دَقيقة أُخرى أرجُوكُم، دَقِيقةٌ وَاحِدة».

كانَ «ذُو الفقار عَلى بوتو» يتابعُ ابنتهُ فِى شفقةٍ وَيقولُ:

«كَفَـى... كفَى يا بينكـى، لا تبكِى، لنْ ينْتهِـى «ذو الفقار على بوتو» بالموْتِ، فأنتِ امتدادٌ لى».

أَحسَّـت «بى نظير» بوهَنٍ شديدٍ يَسـرِى فِى جسدهَا، وبرغبَة عارمَة فى أَنْ تضمَّ أباهَا وَتقبلهُ.

ألْصَقت وجههَا بالقضْبَان الحديديَّةِ وتوسَّلت إلى الحرَّاس:

«أليسَ منْ حقىٍّ أنْ أقبلهُ كابنَة قبلةً أخيرَة، ليسَ عدلًا أنْ يفصلَ بيْنِى وبينَ أبِى قضبَانٌ فِى لقائنَا الأَخير».

وَلكنَّ الحرَّاس لمْ يتحرَّكُوا، كانُوا خَائفينَ منْ كسْر التعليمَات.

انهَارت «بى نظير» كلمَا مرَّ الوقتُ:

«أرجُوكم، أريدُ أنْ أحتضِنَ أبِى مرةً واحدةً أَخِيرَةً».

أَشَاحَ الحرَّاسُ بوجُوههم بعيدًا.

صَرَخت «بى نَظِير»:

«أبِى أبِى».

شـعرَ «ذُو الفقار على بوتو» بقلَق شَديد عَلى ابنته، كانَ يدركُ أنَّ الموقفَ أكبرُ منَ احتمالهَا، قالَ بصوْتٍ جَهُورى ليتأكّدَ أنَّ كلمَاتَهُ طُبِعَت فِى ذاكرتهَا:

«لا تفقدِى الثقةَ بنفسِك أبدًا يا بينكى، وَلَا فِى النَّاس».

نظرَت «بى نظير» فى دهْشَـة إلى أبيهَا كأنمَا تسْتفهمُ منهُ «أَىَّ ناسٍ، بعدَ كُلِّ مَا حدثَ لَهُم؟!».

ابتسمَ «ذُو الفقار على بوتو» وقالَ:

«لَا تجعَلى قِلَّة ظَلمَتنى، يُغيِّرونَ مفاهيمَك وَقناعَاتك التِى طالمَا آمنْتِ بهَا، فهناكَ كثيرونَ خَارج جدرَان السجْن الضَّيقة، يعرفونَ أنَّ «ذو الفقار على بوتو» رجُل دافعَ طوَال حياتهِ عنِ العدَالة والحريَّة، وأنهُ سيموتُ ظلمًا وغدرًا».

استمرَّ «ذُو الفقار على بوتو» يقولُ:

«لستُ نَاقمًا عَلى قَدَرى، لقدْ أرادَ الله أَنْ يَهَبنى الشهادةَ».

صرخَ الحراسُ مرةً أخْرى:

«انتهَى الوقْت».

رفعتْ «بِى نَظِير» عينيْهَا الحَمْرَاوينِ إلى أبيهَا، كأنمَا تطبعُ صورتهُ داخلهَا، وَتملأُ عقلهَا وَقلبهَا بملامحِه قبلَ أنْ يتحوَّلَ إلىَ ذكْرَى.

لَوَّح لهَا على بوتو:

«كُونى قويَّة يا بينكى كعهدِى بكِ، ولَا تستسْلمِى للحزْن».

عَادت «بِى نَظِير» إلى زنزانتهَا، وَفِى المسَاء حَلُمَتْ بأبيهَا يُحلِّق فِى فضَاء رحْب، ويضحَكُ فِى صفَاء كأنمَا تخلَّصَ لتوِّه منْ أثقالهِ وهمومُه.

وَفِــى اليومِ التَّالى، عرفَ الجميعُ بإعدَام «ذو الفقار على بوتو»، حدثَ هذَا فِى مَدينة روالبندى عام ١٩٧٩.

ظلَّت «بى نظير» دَاخِل الســجْن بعــدَ إعدَام أبيهَا، ثُم أُفرجَ عنهَا وَحُدِّدت إقامتهَا فِى منزلهَا، ولكنهَا اسْتطاعت الهرُوب مِنْ باكستان.

ظلَّت فِى غُربتهَا سَنوات، حتَّى سُمح لهَا بالعوْدة.

فورَ أَنْ حطَّت عَلى أرْض الوطَن، أحاطَ بهَا مُؤيدُوا حزْب الشعبِ الَّذِى أَسسهُ أبوهَا، وَتولَّت زعَامتهُ بعدَ عودتهَا.

رفعُوا صُورتَهَــا جنبًا إلى جنْب معَ صُورة «ذو الفقار على بوتو» وهتفُوا « الثَّأْرَ... الثَّأْرَ».

لوَّحت إليهمْ لتهْدِئتهم وَخَطبت فِيهم:

«بلِ الحريَّة وَاسْـتِعَادة الديمُوقْرَاطية، هذَا مَا يمكنُ أَنْ يُسـعد «ذو الفقار على بوتو» وَلأجْل هذَا ضحَّى بحيَاته».

فِـى تلكَ الأثناءِ كانتْ «نصرت بوتـو»، لا يعجبهَا أنْ تظلَّ ابنتهَا الجَميلة دونَ زَوَاج.

اخْتَلَت بهَا ذاتَ مسَـاء، كانتْ «بى نظير» كعادتهَا تقلِّب العديدَ منَ الكُتـب والأوراق. اقترَبت منهَا وكلَّمتهَا عنْ «عَاصف زارداری» قائلةً «إنهُ شَابٌّ لطِيفٌ وَنَاجح».

رفعَت «بى نظير» رأسهَا مُستفهمَةً، فأكمَلتْ «نصرت» كلامهَا «بينكى ليسَ منَ المعقُول أنْ تظلِّى دونَ زوْج، مَا رأيكِ؟ هَلْ أُرَتِّبُ موعدًا»؟

هَزَّت «بى نظير» بوتو رأسهَا بالموَافقة. لمْ تُصَدِّق «نصرت» أَنَّ ابنتهَـا العنيدةَ وَافقتْ أنْ تَرَى خَطيبَهَا بهَذه البسَـاطة. ولمْ تُصَدق «بى نظير» نفسَهَا أَيْضًا.

هكذَا؟ توافقُ فِى بسَاطة عَلى زِيجَة تقليديَّة؟ لمْ تَدْرِ لمَ فعلتْ ذلـكَ، وَلكنْ حيـنَ التقتْ «بعَاصف» فهمَت. أَحسَّـت منذُ الوهْلة الأولىَ أنهَا أمَام قَدَرهَا فتزوَّجتهُ عام ١٩٨٧، وَزفَّها آلافٌ منْ مُؤَيدِى حزْبِ الشعْب.

كانَ «عاصف زارداری» مُنْدهشا منْ حَفَاوة الناسِ بهمَا فقالَ لهَا مداعبًا:

«مَا هذَا، هلْ تزوَّجتُ بمَلكة «سَبَأ» دونَ أَنْ أدْرِی؟!».

اقتربتْ منهُ فی رقَّة وَقالتْ:

«بَل تزوَّجتَ منَ امرَأة تحبكَ وَزوْجة سوفَ تخلصُ لكَ».

وَقـدْ كانـتْ صَادقة، فقدْ أحبَّـت «بی نَظِيـر» زوجَهَا «عَاصف زارداری».

تغيَّرتْ باكستان منْ حَال إلى حَال بعدَ موْت الجنرَال «ضيَاء الحَق» مُحترقًا فِی طَائرَته. كانَ الباكستانيونَ يتناقلُونَ الخبرَ فِی ذُهولٍ، كأَنَّ «ضيَاءَ الحَق» بقوته وَجبرُوته عَصِیٌّ عَلى الموْت. أَذْهلهم أنهُ تحوَّل إلـى رمَاد فِی غمْضَة عيْن. حتىَّ «بی نظيـر» لمْ تصدقْ حينَ وصَل إليهَا الخبرُ، احتضَنَت صورةَ أَبيهَا وَانسَابت دموعُهَا وهمسَت:

«لقدِ انتهَى عصرُ الديكتاتُوريَّة، أخيرًا يَا أَبِی».

كَانـت مُحقة فِی ذَلك، فقدْ أُقيمَـت انتخَابَاتٌ ديمُوقراطيّةٌ، فازَ فيهَـا حزْبُ الشـعبِ الذِی تقودهُ «بی نظير بوتـو»، وهكذَا صَارت «بی نظير بوتُو» رئيسَة وزَرَاء باكستان فِی عمْرِ الخامسَة والثلاثينَ، وكانتْ بذلكَ أَصْغر رئيسَة وزرَاء فِی العَالمِ.

استمرَّت فِى هذَا المنْصب منْ عام ١٩٨٨ حتَّى ١٩٩٠، ثُم خَسرَت الانتخَابات التاليَة وَانتقلتْ إلى صُفوف المعَارضَة ولكنَّ حزبهَا ربحَ مرَّةً أخْرى فِى الانتخَابات عام ١٩٩٣، لتشكلَ الوزَارةَ منْ عام ١٩٩٣ إلى ١٩٩٦.

أمضَتْ «بى نظير بوتو» السَّنوَات التَّالية خَارج باكستان مُتنقلةً بينَ لندن وَدُبى.

عَادت «بى نظير بوتو» إلى أرْضِ الوطَن عام ٢٠٠٧، كَىْ تُشاركَ فِى الانتخَابَات المقرَّر عقدهَا آنذَاكَ، وتساهمَ فى اسْتعَادة الديمُوقْرَاطية.

تعرَّضت لمحَاولة اغتيَال فورَ وُصُولها، ولكنهَا قرَّرَت مُوَاصَلة مَا بَدَأته. كانتْ مُؤمنةً بالله وَتعرفُ أنَّ الحياةَ هِبَةٌ منهُ سبحَانهُ وَتعَالى، وَإذَا جاء الأَجل، فلَا رادَّ لقضَاء الله.

ثُمَّ مَا قيمةُ الحيَاة دونَ رسَالة وهدَفٍ؟!!.

وَاصَلت «بى نظير» عقدَ الاجتمَاعات وَالتحْضير للانتخَابَات الوَشيكة.. وَلكنَّ القدرَ لمْ يمهلهَا، فقد اغتيلَتْ «بى نظير» التى لَا نظيرَ لهَا عقبَ خطَاب ألقتهُ فِى «روالبندى»، ضمَّن حملتهَا الانتخابيّة. كانَ ذلكَ يومُ الخميس الموَافق ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٧.

إنَّهَا «روالبندى» مرَّةً أُخرى، المدينَة التى شهدَت إعدَام أبيهَا «ذو الفقار على بوتو» منذُ سنوَات. هلْ قُدر لتلكَ المَدينة احتوَاء أحزَان عَائلة بوتو!!

كانَ منْ بيْنِ مَا قالتهُ ذلكَ اليوم، لأنصَارها الذينَ توافدُوا للاستمَاع إليهَا:

«أعرفُ أننى بقدُومى إلى هنَا أَعرِّضُ حَيَاتى إلى الخطَر».

مَاتت «بى نظير» الجسُورَة التى قدَّمَت صُورةً مُشرفة للمرأَة المسْلمة، وَاتشحَ الباكستانيونَ السوَاد حزنًا عَلى القلبِ الكبيرِ الذى نبضَ دائمًا.

«عَاشتْ باكستان... عَاشَت الديمُوقراطية».

ولكنهُ توقَّفَ بأيدٍ غَادرةٍ إلى الأبدِ.

أُقيمَت الانتخاباتُ بعدَ موتِ «بى نظير»، وفازَ حزْب الشعبِ الذى كانتْ تَرْأسهُ.

وتوافَدَ الباكستانيونَ عَلى قبر «بى نظير»، ليضَعُوا الورودَ ولقرَاءةِ آياتِ القرآن. وليستمدُّوا منْ رحلةِ كفاحهَا القوَّة.